مجلة المنهل ـ المجلد: 07، العدد: 02 (2021م) ـ ص ص 127 – 144
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

أساليب المنافقين القولية في الكيد للدّعوة الإسلامية في سورة التوبة

Hypocrites' verbal methods to plot against the Islamic Call in Surat Al Tawba.

عادل شواش(*)
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران (الجزائر)
chouache_19@hotmail.fr

سليم سرّار
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران (الجزائر)
serrar-salim19@hotmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/09/21	2021/10/20	2021/11/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

من مظاهر عظمة القرآن الكريم وإعجاز نظمه وموضوعاته أنّ كلّ سورة من سوره قد انفردت بموضوعات كبرى بارزة، عالجتها ببيان كُنهها وأساليبها وغير ذلك، ومن بين سور القرآن الكريم التي اختصّت بالحديث عن موضوع خطير يهدِّد كيان المجتمع المسلم وتماسكه؛ سورة التّوبة حيث أنّها من السّور المدنية التي تضمّنت الحديث على النّفاق والمنافقين وصفاتهم وأساليبهم وطرقهم في صدّ دعوة الإسلام.

ومن هنا جاءت فكرة البحث وإشكاليتُه حيث يتساءل القارئ لسورة التّوبة عن الأساليب القولية التي اعتمدها المنافقون في الكيد لدعوة الإسلام وصدّها، حتّى يتسنَّى له التنبّه لهذه الطّرق و تحذير المسلمين من شرِّها، وصدّها ومحاربتها؛ ولتحقيق ما تمّ ذِكره انتظم هذا البحث في مقدمةٍ ومتنٍ وخاتمة.

كما اشتملت خاتمة هذا البحث على مجموعة من النّتائج أهمّها: أنّ المنافقين غاية جهدهم وأكبر همّهم هو محاولة القضاء على الدّعوة الإسلامية معتمدين في ذلك أخبثَ الأساليب القولية وأشنعِها.

الكلمات المفتاحية: التّوبة؛ النّفاق؛ المنافقون؛ أساليب.

Abstract :

One of the manifestations of the greatness of the Qur'an and the miracle of its systems and topics is that each of its surahs has been singled out for major prominent topics that I have addressed with a statement of its nature, methods, etc .

One of the walls of the Holy Quran, which is unique in talking about a serious issue that threatens the entity and cohesion of the Muslim society from within, is the Surat al-Tawba, which included talking about hypocrisy and hypocrites, their prescriptions, methods and ways to repel the call of Islam.

Hence the idea of research and its problem, where the following asks the next to the repentance about the ways of saying that the hypocrites adopted in the malicious to call Islam and repel it, so that he can be aware of these methods and be ware of them and then in the end

(*) المؤلف المراسل.

repel them and fight them and warn Muslims of them, and to achieve what was mentioned organized this research in the introduction, the two researchers and the conclusion.

The conclusion of this research included a set of findings, the most important of which is that hypocrites are very hard-working and their biggest concern is to try to eliminate the Islamic da'wa, relying on the most sinister and heinous methods of words

Keywords: Surat Al-Tawbah; methods; the hypocrits.

1. مقدمة.

لقد تعهّد الله–عزّ وجلّ– البشرية منذ وجودها برعايته وهدايته بما يرسله إليهم من الرّسل، وما ينزّله إليهم من الكتب، وقد تمّت هدايته و كمُل دينه على يد خير البشريّة محمد–صلّى الله عليه وسلّم– **لقوله تعالى:** ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ **[المائدة: 3]**. وكان من حقّ هذه الرّسالة الأخيرة على جميع الخلق اتّباعها، والاهتداء بهديها، إلاّ أنّ بعض البشر تنكّروا لهذه النّعمة وجحدوا بها، ولم يكتفوا بهذا بل حاربوها بشتّى الطّرق والوسائل، وقد بيّنتْ سور القرآن الكريم هؤلاء الأعداء من يهود ونصارى ومشركين ومنافقين، وذكرتْ صفاتهم والطّرق التي استخدموها في الكيد للإسلام والمسلمين.

ولعلّ النّاظر والمتأمّل في أعداء الدّعوة الإسلاميّة يجد أنّ أشدّهم خطرًا، وأكثرهم ضررًا عليها هم الذين يكيدون من الدّاخل حيث لا يَتفطّن لمكرهم وخديعتهم، إلاّ القلّة القليلة الواعية من المسلمين؛ لأنّها تُظهر الإسلام وتُبطن في أعماقها الكفر والإلحاد على عكس أعدائها من الخارج.

ومن هنا جاءت الآيات القرآنية المدنيّة تحذّر من النّفاق والمنافقين، وتوضّح أثرهم الخطير على الدّعوة الإسلامية وتُبرز الأساليب القولية التي استخدموها في الكيد لها والصدّ عنها.

ومن السّور المدنية التي عالجت ظاهرة النّفاق، سورة التّوبة؛ هذه الأخيرة التي حكت واقع المسلمين في مواجهة تيّارات الكيد التي كان يركبها المنافقون، ونقلت لنا أحداث مهمّة عن واقع المسلمين في العهد المدنيّ، كما أنّها تكلمت على آخر غزوة للنّبيّ ﷺ ألا وهي غزوة تبوك، وكشفت حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وجرائمهم البشعة بحقّ رسول الله ﷺ والمسلمين، فكانوا أكبر خطر يواجه الدّعوة الإسلامية ويوهن مسيرتها، من أجل ذلك جاء مقالي بعنوان: "**أساليب المنافقين القولية في الكيد للدّعوة الإسلامية في سورة التّوبة**".

إشكالية البحث: إشكالية هذا البحث تكمن في التّنقيب عن أساليب المنافقين القوليّة في الكيد للدّعوة الإسلامية في سورة التّوبة، أي هل استوعبت سورة التّوبة كلّ أساليبهم منذ بداية الدّعوة إلى غاية وفاته

صلّى الله عليه وسلّم ؟ وهل تميّزت سورة التّوبة عن غيرها من سور القرآن الكريم في هذا الموضوع؟ وما هو منهج القرآن في الردّ على هذه الأساليب؟

أهميّة البحث: تكمن أهمية هذا البحث في ما يلي:

1- كونه يتناول أخطر ما يهدّد الدّعوة الإسلامية، ويعرقل مسارها نحو الأمام.

2- أنّه يعكس صورة النّفاق في المجتمع الإسلامي في العهد المدني، ويكشف أساليب الكيد والمكر التي كان يَحيكُها المنافقون كلّ يوم، وكيف كان القرآن الكريم يكشفها، ويردّ أصحابها على أعقابهم.

3- سورة التّوبة من السّور المدنية التي اهتمت بفضح المنافقين وكشف صفاتهم؛ فكان حرّيٌّ بكلّ الباحثين أن يكشفوا أحوال المنافقين من كلّ الجوانب في هذه السّورة، فجاء هذا البحث تكملة لذلك.

أهداف البحث: من جملة الأهداف التي رُمت وُصولًا إليها من خلال بحثي هذا ما يلي:

1- تقديم دراسة موضوعية حول أساليب المنافقين القولية وأخطارها على مسار الدّعوة الإسلاميّة.

2- ربط الموضوع محلّ الدّراسة، بواقع المسلمين في هذا العصر الذي تعيشه الأمة.

3- التّعريف بسورة التّوبة؛ وذلك ببيان أسمائها وعدد آياتها وسبب نزولها وأهم موضوعاتها وأبرز مقاصدها.

4- بيان خطر المنافقين قديما واستمرارية ذلك بعد عصر التّنزيل إلى وقتنا الحالي.

الدّراسات السابقة: في حدود اطّلاعي وقفت على مجموعة من الدّراسات السابقة، الغزيرة جدًّا في موضوع النّفاق والمنافقين، وقد تيسّر لي الحصول على البعض منها والاستفادة منها في بحثي هذا، والكثير منها لم أتمكّن من الاطّلاع على محتواها لتوفّر العنوان فقط في الأنترنت، وأيضا لكثرتها كما ذكرت آنفًا.

1- أهداف ومقاصد سورة التّوبة، "دراسة تحليلية"، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التّفسير وعلوم القرآن، حسن عبد الله طه الخطيب، إشراف الاستاذ: عبد الكريم حمدي الدّهشان، قسم التّفسير وعلوم القرآن ، كلية أصول الدّين، الجامعة الإسلامية- غزّة، 1429هـ- 2008م، تطرّق فيها صاحبها إلى الموضوعات الكبرى لسورة التّوبة، وأهم المقاصد التي حملتها في طيّاتها، من خلال تقسيمه لسورة التّوبة

إلى مقاطع، وقد ذكر في المبحث الأوّل من الفصل الثّالث صفات المنافقين وخطورتهم على المجتمع المسلم.

2- النّفاق والزّندقة وأثرهما في مواجهة الدّعوة الإسلامية قديمًا وحديثًا، بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير، عطيّة عتيق عبد الله الزّهراني، إشراف الاستاذ: محمّد الغزالي، فرع العقيدة، قسم الدّراسات العليا الشّرعية، كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، جامعة الملك عبد العزيز بمكّة المكرّمة، 1399هـ-1400هـ، تطرّق فيها صاحبها في المبحث الرّابع من الباب الأوّل إلى بعض المواقف العِدائيّة للكفّار والمنافقين في الكيد للدّعوة الإسلاميّة في القرآن كلّه، فقد ذكر مكرهم في عدّة غزوات من بينها غزوة تبوك، إلاّ أنّه ذكر أعمالهم الخبيثة إجمالاً.

كما أنّني استعنت بمقالين اثنين:

- الأوّل بعنوان: من صفات المنافقين في سورة التّوبة، ذكر فيه صاحبه بعض صفات المنافقين في سورة التّوبة، فقد كان يذكر صفة من صفات المنافقين، ويشرح كيف أثّرت هذه الصّفة على الدّعوة الإسلامية، عن طريق اعتماده على مجموعة من التّفاسير، وقد عدّ خمس عشرة صفة لهم، يذكر تحت كلّ صفة آية ولا يزيد عليها.

- والثّاني بعنوان: بيان القرآن لانحرافات المنافقين، وطرق الردّ عليهم للأستاذ الدكتور: عبد السّتّار فتح الله سعيد، أستاذ التّفسير وعلوم القرآن، بجامعتي الأزهر وأمّ القرى سابقًا، القسم الثّاني، 22 أكتوبر 2014م، فقد ذكر الأستاذ أربعة نماذج للمنافقين، من بعض سور القرآن الكريم، وتطرّق في النّموذج الرابع لسورة التّوبة، وذكر باختصار أساليبهم في المكر بالمسلمين كلّ مرّة، ومحاولاتهم في القضاء على الدّعوة الإسلامية.

وقد حاولت في بحثي هذا التّطرّق لجميع أساليب المنافقين القولية في سورة التّوبة، آية آية، وبيّنتُ منهج القرآن الكريم في محاربتها.

منهج البحث: اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي للتّفسير الموضوعي التّجميعي، حيث أنّي قرأت سورة التّوبة، ثمّ قمتُ باستخراج الآيات التي رأيت فيها أسلوبًا من أساليب المنافقين، وبعدها جمعت الآيات التي تحكي أسلوبًا موحّدًا من أساليبهم ووضعها مع بعضها وشرحها بالاستناد إلى أقوال أهل التّفسير، ثمّ وضعت عنوانًا مناسبًا للآيات بالاعتماد على موضوعها.

2. مفاهيم عامة.

إنّ الوقوف على مفاهيم الكلمات المفتاحية يُسهِّل للباحث عملية البحث في موضوعه، والإلمام بكلّ جوانبه، وفهم معالمه، كما يُعينه في تحديد مجال بحثِه، ويكشف الغموض الذي يعتري فكرَه حول موضوع بحثِه ويزيلَه.

2، 1. شرح حدود البحث.

1، 1، 2 تعريف الأسلوب. لغة: قال ابن منظور: "الأُسْلوبُ الطّريق والوجهُ والمَذْهَبُ يقال أَنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ، ويُجمَعُ أَساليبَ والأُسْلُوبُ الطريقُ تأْخذ فيه والأُسْلوبُ بالضمِّ الفَنُّ، يقال أَخَذ فلانٌ في أَساليبَ من القول، أَي: أَفانِينَ منه وإِنَّ أَنْفَه لفي أُسْلُوبٍ إذا كان مُتكبِّراً" (مكرم، 2004، صفحة 471، ج1).

وقال الزّبيدي: "والأسلوب الوجه والمذهب، وقد سلك أسلوبه: طريقته" (الرزاق، صفحة 71، ج3)

وفي الأخير نتوصّل إلى أنّ معاني الأسلوب تدور حول: الطّريق والفنّ والمنهج والطريقة والمذهب.

اصطلاحًا: عرّفه الجرجاني بأنّه "الضّربُ من النّظم و الطّريقة فيه" (القاهر، 1404هـ، صفحة ص 469)

2، 1، 2 تعريف النّفاق: لغة: قال ابن الأثير عند حديثه على مادة (نَفَقَ): "(نَفَقَ): قد تكرَّر في الحديث ذِكْر [النِّفاق]، وما تصرَّف منه اسْمًا وفعْلاً، وهو اسمٌ إسلامي لم تَعْرِفْه العربُ بالمعْنى المخْصُوص به، وهو الذي يَسْتُر كُفْرَه ويُظْهِر إيمانه، وإنْ كان أصلُه في اللُّغة مَعْروفًا، يقال: نافقَ يُنَافق مُنافَقةً ونِفاقًا، وهو مأخوذ مِنَ النَّافِقاء: أحَد جِحَرة اليَرْبوع إذا طُلِب مِن واحِدٍ هرَب إلى الآخَر وخرَج منه، وقيل: هو من النَّفَق: وهو السّرَب الذي يُسْتَتَر فيهِ لِسَتْرِه كُفْرَه" (السّعادات، 1979م، صفحة 98، ج5)

وعليه فإنّ النّفاق في اللّغة يدور على معنيين ألاَ وهما: الخفاء والغموض.

اصطلاحًا: "هُوَ أن يَسْتُر الرَّجلُ كُفْرَه ويُظْهر إيمَانَهُ. فالمنافِق هو الذي يخالف قولَه فعلُه، وسرَّه علانيته، ومُدخلَه مُخرجُه، ومشهدُه مغيبَه" (موسى، 2000م، صفحة 8).

3، 1، 2 تعريف الكيد. لغة: الكَيْد: المكر والخبث، كادَهُ يَكيدُه كَيْدًا ومَكيدَةً. وكذلك المكايَدَةُ. وربَّما سُمِّي الحربُ كَيْدًا. يقال: غزا فلانٌ فلم يَلْقَ كَيْدًا. وكلُّ شيء تعالجه فأنت تكيده (الرزاق، صفحة 122، ج9)

اصطلاحًا: قال السّيوطي: "الكَيْد: إرَادَةٌ متضمِّنةٌ لاستِتار مَا يُرَاد عَمَّن يُرَاد بِه" (بكر، 2004، صفحة 207)

قال الجرجاني: "الكَيْد: إرَادَةُ مضرَّة الغير خُفْيَة، وهو مِن الخَلْق: الحِيلة السَّيئة، ومِن الله: التَّدبير بالحقِّ لمجازاة أعمال الخَلْق" (شريف، 1983م،، صفحة 189)

4، 1، 2 تعريف الدّعوة. لغة: جاء في لسان العرب في مادة (دَعَا): الدّعوة: اسم لما يدَّعيه، وادَّعيتَ الشّيء: زعمتَه لي، ودعا الرجل دعوا، ودَعاه: ناداه، ودعوتُ فلانًا: أي: صحت به واستدعيتُه. وتداعى القوم: دعا بعضهم بعضًا حتى يجتمعوا، وهو التّداعي. والدُّعاة: قوم يَدعون إلى بيعة (هدًى أو ضلالة)، واحدهم داعٍ. ورجلٌ داعيةٌ: إذا كان يدعوا النّاس إلى بدعة أو دين، أدخلت الهاء فيه للمبالغة (مكرم، 2004، صفحة 258، 259، ج14)

وفي المعجم الوسيط: "الدّعوة: الطّلب؛ يقال: دعا بالشّيء: طلب احضاره، ودعا إلى الشّيء: حثّه على قصده؛ يقال: دعاه إلى القتال، ودعاه إلى الصّلاة، ودعاه إلى الدّين، وإلى المذهب: حثّه على اعتقاده وساقه إليه" (الزّيات، صفحة 286، ج1)

وعمومًا يمكن حصر معاني الدّعوة في الطّلب والحثّ.

اصطلاحًا: عرّفها رؤوف شلبي فقال: "هي الحركة الإسلامية في جانبيها النّظري والتّطبيقي من حيث هي: حركة بناء للدولة الإسلامية، ومن حيث هي دفاع عن استمرار وجودها" (شلبي، 1974م، صفحة 36، ج1)

وقال علي محفوظ: الدعوةُ: "حثُّ النّاس على الخير والهدي، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ ليفوز النّاس بسعادة الآجل والعاجل" (محفوظ، 1979، صفحة 17)

2،2. الموضوع العام لسورة التوبة وأهمّ مقاصدها.

1، 2، 2 موضوعها العام: في هذه السّورة فصول عديدة ومتنوّعة؛ إلّا أنّه يجمعها طابع عام واحد وهو الحثّ على الجهاد والحملة على المنافقين والكافرين والمشركين، والثّناء على المؤمنين المخلصين، ولمّا كانت السّورة مشتملة على الأمر بالقتال لم يُكتب في أوّلها «بسم الله الرحمن الرحيم»، وللمفسّرين أسبابًا أخرى في عدم كتابة البسملة في أوّلها يقصر المقام لذكرها.

2، 2، 2 أهمّ مقاصد السّورة حسب مقاطعها.

تتمثل مقاصد السّورة حسب مقاطعها الستّ إلى ما يلي:

المقطع الأوّل: ويمتدّ من الآية الأولى إلى الآية الرّابعة والعشرين، وموضوعه: نبذ عهود الكفّار وذمّهم؛ لأنّهم لا يرقبون في أحدٍ من المؤمنين إلًّا ولا ذمّة.

المقطع الثّاني: ويمتدّ من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السّابعة والعشرين، وموضوعه: غزوة حُنين.

المقطع الثّالث: ويمتدّ من الآية الثّامنة والعشرين إلى الآية الخامسة والثّلاثين، وموضوعه: نجاسة المشركين، والنّهي عن دخولهم البيت الحرام، والأمر بقتال أهل الكتاب، الذين لا يدينون دين الحقّ؛ لفساد عقيدتهم، حتّى يُسلِموا أو يؤدّوا الجزية.

المقطع الرّابع: ويمتدّ من الآية السّابعة والثّلاثين إلى الآية الثّامنة والثّلاثين، وموضوعه: تحديد الأشهر الحرم وما فيها من أحكام فقهية.

المقطع الخامس: ويمتدّ من الآية الخامسة والثّلاثين إلى الآية سبعٍ وعشرين ومائة، في تسعٍ وثمانين آية، ويشغل معظم مساحة السّورة، حيث يتناول الجوَّ العامّ لقصّة غزوة تبوك، آخر غزوات النّبيّ–صلّى الله عليه وسلّم–.

المقطع السّادس: ويمتدُّ من الآية ثمانٍ وعشرين ومائة إلى الآية تسعٍ وعشرين ومائة، وموضوعه: حكمة بعثة النبيّ ﷺ في العرب وعظيم مكانته فيهم.

3. أساليب المنافقين القولية في الكيد للدّعوة الإسلاميّة في سورة التوبة.

بعد تتبُّعي واستقرائي للآيات في سورة التّوبة التي تكلّمت عن المنافقين وأساليبهم القولية في صدّ دعوة الإسلام، قسَّمتها وفق العناصر الآتية:

3،1. الأيمان الفاجرة، وإثارة الفتن بين المسلمين، والطّعن فيهم.

تعرّضت الدّعوة الإسلامية، لطعنات كثيرة من أعدائها، فقد واجهها المشركون في مكّة، ثمّ المنافقون في المدينة، فكلٌّ من العدوّين حاول إماتتها، واقتلاع أصولها وطمس معالم التديّن عند متّبعيها، ومع ذلك فإنّ خطر المنافقين كان أقوى؛ لأنّ العدوّ إن كان يعتمد سلاح المواجهة المباشرة سيتفطّن له الجميع، حتّى الذين لا باع لهم في التّخطيط للحروب وغيره ممّا يواجَه به العدوّ، وبهذا فإنّهم يحذرون منه ولا يقعون في مكره، وأمّا إن كان العدوّ حذِرًا في أعمال كيده، حتّى الحاذق من القوم لا يتفطّن لجميع حيله؛ لأنّه عادة لا يُحترس ممّن يُظهر الإيمان؛ لاعتقاد الجميع بأنّه من المدافعين عن الدّعوة الإسلامية، ينشرون الفتن داخل المجتمع الإسلامي محاولين تفريق وحدتهم، فهم يتّهمون النبيّ ﷺ في عدالته، ويكثرون من الأيمان الفاجرة، كما أنّهم يسخرون من المسلمين الضّعفاء الفقراء، ويطعنون في الأغنياء منهم، فهم يتّبعون وسائل خبيثة، للوصول إلى غايات أخبث. وتفصيل ذلك كالآتي:

1، 1، 3 الأيمان الفاجرة، والأعذار المزيفة.

إنّ المنافقين شرّ الأقوام، يجعلون الله عرضة لأيمانهم، رامين الوصول إلى مناهم، ساعين لتحقيق مبتغاهم، وقد تعلّقت أيمانهم الفاجرة، وأعذارهم المزيّفة بعدم القدرة على الخروج للجهاد، مع النبيّ ﷺ والمؤمنين، يبتغون الرّاحة الآنيّة، ولا يفكّرون في الرّاحة الأبديّة، يحبّون الغنائم، والثّروات، ويكرهون مواجهة العدوّ والغزوات، وبيان ذلك كالآتي:

أوّلاً: الأيمان الفاجرة: الآية التي تكلمت عن الأيمان الفاجرة في سورة التّوبة هي **قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التّوبة:42]**، فقد بيّن المولى جلّ وعلا في هذه الآية أحد الأساليب التي اعتمدها المنافقون في صدّ دعوة الإسلام وتعطيلها، ألا وهو حلِفهم بالله على الكذب في عدم القدرة على الخروج للجهاد في غزوة تبوك، قال محمّد رشيد رضا في هذا الصّدد: "...قَائِلِينَ: لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ أَيْ: لَوِ اسْتَطَعْنَا الخُرُوجَ إِلَى الجِهَادِ بِانْتِفَاءِ الأَعْذَارِ المَانِعَةِ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ؛ فَإِنَّنَا لَمْ نَتَخَلَّفْ عَنْكُمْ إِلَّا مُضْطَرِّينَ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِامْتِهَانِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى بِالحَلِفِ الكَاذِبِ؛ لِسَتْرِ نِفَاقِهِمْ وَإِخْفَائِهِ، يُؤَيِّدُونَ البَاطِلَ بِالبَاطِلِ، وَيَدْعُمُونَ الإِجْرَامَ بِالْإِجْرَامِ، أَوْ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الجِهَادِ المُفْضِي إِلَى الفَضِيحَةِ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ سُوءِ المُعَامَلَةِ، فَالجُمْلَةُ مُبَيِّنَةٌ لِحَالِهِمْ فِي حَلِفِهِمْ أَوْ مَا كَانَ سَبَبًا لَهُ، وَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهِ النَّجَاةَ فَيَقَعُونَ فِي الهَلَاكِ: وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ لَوِ اسْتَطَاعُوا الخُرُوجَ لَخَرَجُوا مَعَكُمْ" (رضا، 1990م، صفحة 401، ج10)

ثانيًا: التّعلل بالأعذار المزيَّفة: الآيات التي تكلّمت عن الأعذار المزيّفة للمنافقين في سورة التّوبة هي: **قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾[التّوبة:49]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[التّوبة:86]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التّوبة:90]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [التّوبة:93]**

هذه الآيات من سورة التّوبة ذكرت الذّرائع الواهية والعلل المزيَّفة التي أدّت إلى تخلّف المنافقين عن الجهاد في سبيل الله؛ فالآية الأولى تكلّمت على ذريعة المنافقين في التّخلف في عدم قدرتهم على رؤية بنات بني الأصفر (أي نساء الرّوم) التي تؤدّي بزعمهم إلى الفتنة في الدّين، والثّانية فقد حَكَتْ حال المنافقين ودَيدنهم مع داعي الجهاد من حبّ الدّنيا والمال والجلوس مع الولد والخوف من الموت، حيث

استأذنوا الرّسول ﷺ في التّخلف عن الجهاد مع القدرة عليه؛ قال ابن عاشور: "وَالِاقْتِصَارُ عَلَى الطَّوْلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أُولِي الطَّوْلِ مُرَادٌ بِهِمْ مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الجِهَادِ بِصِحَّةِ البَدَنِ. فَبِوُجُودِ الطَّوْلِ انْتَفَى عُذْرُهُمْ إِذْ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا بِبَدَنِهِ لَا يَنْظُرُ إِلَى كَوْنِهِ ذَا طَوْلٍ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ بَعْدُ وَلا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ" (الطاهر، 1984، صفحة 288، ج10)، وأمّا الآية الثّالثة فقد تحدّثت عن منافقي الأعراب وحالهم مع الجهاد في سبيل الله، قال الإمام البغوي: "... كِلَا الفَرِيقَيْنِ كَانَ مُسِيئًا قَوْمٌ تَكَلَّفُوا عُذْرًا بِالبَاطِلِ، وَهُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى **بِقَوْلِهِ: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ}** وَقَوْمٌ تَخَلَّفُوا عَنْ غَيْرِ تَكَلُّفِ عُذْرٍ فَقَعَدُوا جُرْأَةً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمُ المُنَافِقُونَ فَأَوْعَدَهُمُ اللَّهُ **بِقَوْلِهِ: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**" (مسعود، 1997م، صفحة 84، ج4)

وأمّا الآية الأخيرة فقد بيّن الله فيها سبب تخلّفهم هو الرّضا بالذّلّ والمهانة، قال أبو زهرة: " **وقوله تعالى: (رَضُوا بِأن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ)** هذه جملة مستأنفة لبيان سبب تخلفهم، وهو رضاهم بالمهانة والمذلّة والاحتقار، إذ رضوا بأن يكونوا من الخوالف، وهنَّ القواعد من النّساء اللاتي لَا يقاتلن، اللائي يعبر عنهنَّ بربَّات الخدور، والخوالف أيضا الأشياء الفاسدة التي ترسب في الإناء بعد تفريغه" (زهرة التفاسير، صفحة 3415، ج7).

وعليه فإنّ هذا الأسلوب الشّنيع والمتمثّل في الفرار من فريضة الجهاد، والاختباء وراء أعذار قبيحة، هو أقبح من تركهم الجهاد في حدِّ ذاته، بالإضافة إلى كلّ هذا فإنّهم يحلفون أيمانًا فاجرة، لا يهمّهم شيءٌ إلاّ مصالحهم- هو أسلوب الجبناء الأغبياء أعداء الإسلام؛ لخوفهم من اكتشاف أمر نفاقهم وقتال المسلمين لهم لجأوا إليه، فقد أرادوا التّظاهر بالإسلام ليكيدوا له ولأهله، لكنَّ الله جل وعلا اختبر صدقهم بفرض الجهاد عليهم، ليفضحهم أمام المؤمنين؛ ليحذروا منهم، ويتّقوا شرّ فتنتهم.

2، 1، 3 بثُّ الخلافات ومظاهر الشّقاق في صفوف المسلمين وإثارة الفتن

سعى المنافقون بشتّى الطّرق لدسّ سمومهم بين المسلمين، وتضعيف قوّتهم؛ لأنّهم أيقنوا أنّ أسهل طريقة للفتك بالمسلمين هي إثارة الحروب النّفسية الدّاخلية بينهم، فراحوا يمشون بالنّميمة، للإفساد بينهم، وتشتيت شملهم، وإيقاع العداوة والبغضاء في صفوفهم. وتفصيل ذلك على النّحو الآتي:

<u>أوّلاً:</u> بث الخلافات، ومظاهر الشّقاق في صفوف المسلمين.

الآية التي تكلمت عن هذا الأسلوب هي **قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَ لأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:47]**، حيث ذكر الله تعالى في هذه الآية أنّ خروج المنافقين مع المؤمنين لا يزيدهم قوّة وإنّما يزيدهم شرًّا وجبنًا وخوفًا، وقد عبّر عن ذلك بالخَبال وهو الاضطراب في الرّأي وذلك بتزيين رأي لقوم وتقبيحه لآخرين حتّى يضطربوا ويختلفوا

ويفترقوا، قال ابن عاشور رحمه الله: "وَالخَبَالُ: الْفَسَادُ، وَتَفَكُّكُ الشَّيْءِ المُلْتَحِمِ المُلْتَئِمِ، فَأُطْلِقَ هُنَا عَلَى اضْطِرَابِ الجَيْشِ وَاخْتِلَالِ نظامه." (الطاهر، 1984، صفحة 216، ج10).

ثانيًا: إثارة الفتن.

الآية التي تحدّثت عن هذا الأسلوب في سورة التّوبة هي **قوله تعالى:** ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾**[التّوبة:48]**، قال أبو بكر جابر الجزائري متحدّثًا عن خطر هذا الأسلوب ما نصّه: " ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ**﴾ بل من يوم هاجرتَ إلى المدينة ووجد بها الإسلام وهم يثيرون الفتن بين أصحابك للإيقاع بهم، وفي أحد رجع ابن أبيّ بثلث الجيش وهم بنو سلمة وبنو حارثة بالرّجوع عن القتال لولا أنّ الله سلّم ﴿ **وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ**﴾ وصرفوها في وجوه شتّى بقصد القضاء على دعوتك فظاهروا المشركين واليهود في مواطن كثيرة وكان هذا دأبهم ﴿**حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ**﴾ بفتح مكّة ﴿**وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّه**

﴾ بدخول أكثر العرب في دين الله ﴿**وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ لذلك بل أسفون حزنون، ولذا فلا تأسفوا على عدم خروجهم معكم، ولا تحفلوا به أو تهتمّوا له، فإنَّ الله رحمة بكم ونصرًا لكم صرفهم عن الخروج معكم. فاحمدوا الله وأثنوا عليه بما هو أهله، ولله الحمد والمنّة" (جابر، 2003، صفحة 376، ج2).

وهذا الأسلوب ليس أقل خطرا من سابقه، فقد جمع العديد من الأعمال القبيحة، والمتمثّلة في الكيد بالمسلمين، وإثارة الفتن بينهم، ومحاولة تشتيت جمعهم؛ ولأنّهم علموا بأنّ اتّحاد المؤمنين فيما بينهم يهدد مستقبلهم، ويضعف همّتهم، ويكسر شوكتهم، جعلوا المكر والحيلة، مبتغاهم ومناهم الأسمى الذي كانوا يصبُون إليه، ويبذلون له كل ما يملكون، ليفرّقوا المسلمين ويُضعفوا قوّتهم.

3، 1، 3 **الفرح بانكسار المسلمين، والطّعن فيهم.**

إنّ من خُبث المنافقين، أن يكون منهم هذا السّلوك الشّنيع، الذي يدّل قطعًا على شدّة حقدهم على الإسلام وأهله، إذ لا يفرح بانكسار القوم، أو يحزن بانتصارهم، إلاّ ألدّ أعدائهم، كما أنّهم تولّوا عن المسلمين وقت الحاجة إليهم، ورغبوا في العودة إلى الانتظام في صفوفهم للكيد بهم مرة أخرى، فارّين من المشقّة، مبتغين الرّاحة والغنيمة، وبيان ذلك كالآتي:

أوّلاً: الفرح بانكسار المسلمين: الآية التي تكلمت عن هذا الأسلوب هي **قوله تعالى:** ﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ** ﴾ **[التّوبة:50]**، ذكر الله تعالى في هذه الآية أحد العلامات التي تدلّ على خبث سريرة المنافقين، ألا وهي الجزع والحزن بانتصار المسلمين والفرح والسّرور بانهزامهم، ولا يكتفون بهذا بل يبثُّون الأذى النّفسي وسط جيش المسلمين بقولهم

نحن احتطنا لهذا الأمر وعلمنا مسبقًا بمآل هذه الغزوة؛ قال سيّد قطب: "واحتطنا ألّا نُصاب مع المسلمين بشرّ ، وتخلّفنا عن الكفاح والغزو! «**وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ**» .. بالنّجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء.

ذلك أنّهم يأخذون بظواهر الأمور، ويحسبون البلاء شرًّا في كل حال، ويظنّون أنّهم يحقّقون لأنفسهم الخير بالتخلّف والقعود. وقد خلت قلوبهم من التّسليم للّه، والرّضى بقدَره، واعتقاد الخير فيه. والمسلم الصّادق يبذل جهده ويُقدم لا يخشى، اعتقادًا بأنَّ ما يصيبه من خير أو شرّ معقود بإرادة اللّه، وأنّ اللّه ناصر له ومعين" (قطب، 2008، صفحة 1664، ج 3)

ثانيًا: سخريّتهم من فقراء المسلمين، واتّهام أغنيائهم بالرّياء. الآية التي تحدّثت عن هذا الأسلوب هي **قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:79]** ففي هذه الآية بيان اتّهام المنافقين لأغنياء المؤمنين بالرّياء والسّمعة، والسّخرية من فقرائهم، أهل الحاجة والمسكنة، والذين لا يجدون ما يتصدّقون به إلاّ جهدهم، وذلك طاقتهم فينتقصونهم، قال محمّد رشيد رضا: " هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي الصَّدَقَاتِ لِلْجِهَادِ؛ إِذْ لَمْ يَقِفِ الْمُنَافِقُونَ عِنْدَ حَدِّ بُخْلِهِمْ وَتَخَلُّفِهِمْ، بَلْ تَعَدَّوْهُ إِلَى لَمْزِ الْمُؤْمِنِينَ وَذَمِّهِمْ، بِمَا بَذَلَهُ غَنِيُّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ، وَلِحُكْمِ مَنْ تَرَدَّوْا فِي هَذِهِ الْهَاوِيَةِ مِنَ النِّفَاقِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ أَدْنَى حَظٍّ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالْإِسْلَامِ، وَلَا أَدْنَى نَفْعٍ مِنِ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ وَدُعَائِهِ لَهُمْ ؛ لِرُسُوخِهِمْ فِي الْكُفْرِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَعَدَمِ الرَّجَاءِ فِي إِيمَانِهِمْ" (رضا، 1990م، صفحة 485، ج 10)

فلم يسلم من طعنهم المقلُّ ولا المكثر ، يستهزئون بالمقلِّ لحقارة ما يخرجه في الصّدقة، مع كون ذلك جهده، وغاية ما يقدر عليه، ويتمكّن منه ، ويطعنون في نوايا المُكثر، وهنا وصلوا إلى حدّ لم يعد لهم فيه أدنى حظ من الإسلام ، فقد كانوا- قبّحهم الله- ، لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً فيه إلاّ قالوا وطعنوا بغيًا وعدوانًا، وهذا يصوّر لنا نظرتهم المنحرفة لطبيعة الإنفاق في سبيل الله وبواعثه في نفوسهم.

3،2. **الاعتذار الكاذب، والأمر بالمنكر، والطّعن في الرّسول-صلّى اللّه عليه وسلّم-** :

عاش المنافقون مع المسلمين، مظهرين إيمانهم، مضمرين كفرهم، يتودّدون إليهم خوفا منهم، لا محبّة لهم ولدينهم، يظهرون الولاء، وهم في الخفاء شرّ الأعداء، ينخرون عظام الدّعوة الإسلاميّة؛ لأنّهم أيقنوا أنّه السّبيل للعيش معهم في سلامٍ وأمنٍ، يتنعّمون بالغنائم مع أصحاب رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- ، وفي كنف رسول الله ﷺ، فكانوا يعملون جاهدين على حيازة رضى المؤمنين عنهم، ولم يوقنوا بأنّه لا فائدة من رضى الخلق، وربّ الخلق ساخط، وهذا العمل القبيح دليل جبنهم وخوفهم، يفضّلون عيش المذلّة

والاختباء، ويفرّطون في عيش العزّة والسّخاء، في سبيل تحصيل أمور دنيويّة لا تُغني عنهم من الله شيئا، وتفصيل ذلك على النّحو الآتي:

1، 2، 3 الاعتذار الكاذب، والأمر بالمنكر.

حاول المنافقون بشتى الطّرق، للكيد بدعوة الحقّ، فأيقنوا أنّ كسب رضى المؤمنين أمر عظيم، إذ به يمكنهم تحقيق العديد من المصالح الدّنيويّة، والتي يعتبرونها أهمّ من أيّ شيء حتى العبادة، فكانوا يسعون جاهدين أنفسهم لتحقيق هذا الذي يعتبرونه الهدف الأساسي الذي ينبغي أن لا يغفلوه، وقد قدّموه على رضا الله– جلّ وعلا– ، وهذا ينفي إيمانهم من الأساس، وقد بيّن الله عز وجل في الآية أنّ رضى المؤمنين لن ينفعهم، مادام أنّ الله– جلّ وعلا– ساخط عليهم، وتفصيل ذلك على النّحو الآتي:

أوّلاً: الاعتذار بالكذب لإرضاء المسلمين.

الآيات التي بيّنت هذا الأسلوب: هي **قوله تعالى:﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[التّوبة:62]، وقوله تعالى:﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التّوبة:94]، وقوله تعالى:﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[التّوبة:95]، وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التّوبة:96].**

يبيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآيات أسلوبًا من أساليب المنافقين في خداع المؤمنين ألا وهو الحلِف بالله تعالى كذبًا محاولة منهم لإرضاء المؤمنين، وهم في حقيقة الأمر يكيدون لهم ويطعنون فيهم، ففضحهم الله عز وجل وبيّن أسلوبهم الماكر الخبيث.

وفي الآيات أيضًا عبرة للمنافقين في زماننا، ومعرفة بحالهم، فهم يحلفون الأيمان الكاذبة في سبيل الحصول على مبتغاهم من الملوك والأمراء، ويتقرّبون إليهم بما يسخط الله عنهم، فيتودّدون للنّاس ليرضوهم، إضافة إلى أنّهم لا يخافون الله، لذلك هم صاغرون لعدم خشيتهم من الله جلّ وعلا، وخوفهم من العباد، قال سيّد قطب رحمه الله: "يحلفون باللّه لكم ليرضوكم، على طريقة المنافقين في كل زمان، الذين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ثم يجبنون عن المواجهة، ويضعفون عن المصارحة، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم" (قطب، 2008، صفحة 1671، ج3).

ثانيًا: الأمر بالمنكر: الآية التي بيّنت هذا الأسلوب هي **قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التّوبة:67]**، ذكر الله تعالى في هذه الآية أنّ المنافقين يُظهرون الإيمان للمؤمنين بألسنتهم،

ويسِرّون الكفر بالله ورسوله– صلّى الله عليه وسلّم– ، فأمرهم واحد في إعلان الإيمان واستبطانهم الكفر، يأمرون بالمنكر، وهو الكفر بالله وبمحمّد ﷺ، وينهون عن الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله، قال وهبة الزحيلي عقب تفسيره لهذه الآية: "ومطلع الآيات إخبار وحكم من الله تعالى بأنّ المنافقين والمنافقات بعضهم يشبه بعضًا في الحكم والمنزلة من الكفر، وفي صفة النِّفاق والبعد عن الإيمان، وفي الأخلاق والأعمال، فهم سلالة خبيثة يأمرون بهدم قيم المجتمع، يأمرون النّاس بالمنكر: وهو ما أنكره الشّرع ونهى عنه، واستقبحه العقل السّليم والعرف الصّحيح، كالكذب والخيانة ونقض العهد وخلف الوعد، وينهون النّاس عن المعروف: وهو كلّ ما أمر به الشّرع وأقرّه العقل والطّبع السّليم كالجهاد وبذل المال في سبيل الله" (مصطفى، 1422هـ.، صفحة 884، ج1)

وهذا الأسلوب ليس أقلّ خطرًا من سابقيه، فقد جمع العديد من الأعمال القبيحة، والمتمثّلة في الكيد بالمسلمين، وإثارة الفتن بينهم، ومحاولة تشتيت جمعهم؛ ولأنّهم علموا بأنّ اتّحاد المؤمنين فيما بينهم يهدد مستقبلهم، ويُضعف همّتهم، ويكسر شوكتهم، جعلوا المكر والحيلة، مبتغاهم الأسمى الذي كانوا يصبون إليه، ويبذلون له كل ما يملكون، ليفرّقوا المسلمين ويُضعفوا قوّتهم.

2، 2، 3 الطّعن في رسول الله ﷺ .

لم يكتفِ المنافقون بالاستهزاء بالمؤمنين وأذيّتهم، بل تعدّوا ذلك إلى الطّعن في النّبيّ، بأبشع الطّرق، محاولين تغيير صورته الحسنة في نظر المؤمنين؛ لينفِّروهم منه ومن دينه، ويشتّتوهم حوله، ينشرون الإشاعات والأكاذيب عنه، قصدهم تضعيف الدّعوة الإسلاميّة، والقضاء عليها؛ لأنّ ضرب الأساس يهدّم البناء، وبعد البحث وتتبع آيات سورة التّوبة وجدت طعن المنافقين في الرّسول صلّى الله عليه وسلم من عدة جوانب هي كالآتي:

أوّلًا: لمز النبيّ ﷺ في توزيع الصدقات، واتّهامه في عدالته.

ويتجلى ذلك في **قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[التوبة: 58]**، بيّن الله تعالى في هذه الآية أنّ من المنافقين من يعيب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قسمة الصّدقات، وينتقده بقصد الانتقاص منه؛ قال الإمام الرّازي عقب تفسيره لهذه الآية: " اعْلَمْ أَنَّ المَقْصُودَ مِنْ هَذَا شَرْحُ نَوْعٍ آخَرَ مِنْ قَبَائِحِهِمْ وَفَضَائِحِهِمْ، وَهُوَ طَعْنُهُمْ فِي الرَّسُولِ بِسَبَبِ أَخْذِ الصَّدَقَاتِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يُؤْثِرُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَقَارِبِهِ وَأَهْلِ مَوَدَّتِهِ وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُرَاعِي العدل" (الرّازي، 1420هـ، صفحة 75، ج16).

ثانيًا: الجشع، وعدم الرّضا بقسمة النّبيّ ﷺ.

ويبرز ذلك في **قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[التوبة:59]**، حيث أشارت هذه الآية فقدان المنافقين إلى أدب رفيع ألا وهو عدم الرّضا بقسمة الله لهم، وما أعطاهم على يد رسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ قال ابن عطية رحمه الله أثناء تفسيره لهذه الآية: "وصف للحال التي ينبغي أن يكون عليها المستقيمون ، يقول تعالى: ولو أنّ هؤلاء المنافقين رضوا قسمة الله الرّزق لهم وما أعطاهم على يدي رسوله ورجوا أنفسهم فضل الله ورسوله وأقرّوا بالرّغبة إلى الله لكان خيرًا لهم وأفضل ممّا هم فيه ، وحذف الجواب من الآية لدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه" (عطيّة، 2001، صفحة 47، ج3).

ثالثًا: اتّهام النبيّ ﷺ بقلّة حزمه.

ويظهر ذلك في قوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾[التوبة:61]**، ذكر الله تعالى أحد جهالات المنافقين في اتّهام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالأُذن، أي أنّه يغترُّ بكلّ ما يسمع، وقصدهم بذلك الذّم والطّعن في شخص رئيس الدّولة آنذاك؛ قال أبو جعفر الطّبري عند تفسيره لهذه الآية: "يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه **﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ سامعةٌ﴾**، يسمع من كل أحدٍ ما يقول فيقبله ويصدِّقه" (الطبري، 2000م، صفحة 324، ج14).

فقد أيقن المنافقون أنّ ضرب الدّعوة الإسلامية في صميمها، يقتضي المساس بكمال النبيّ ﷺ؛ لأنّه أساسها، وهو القائم على مصالحها، فراحوا يرمونه بالأذيّة والطعن؛ لتشتيت المسلمين حوله بشتى الطّرق: من لمزه في الصّدقات، واتّهامه بالمحاباة، والطعن في عدالته وأخلاقه؛ لتهتزّ ثقة من حوله به، لكن الله جل وعلا ردّ كيدهم في نحرهم، ودافع عن نبيّه ﷺ **بقوله ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾** فأخبر بأنّ رسولنا الكريم- عليه أفضل الصلاة وأزكى السّلام- أُذن خير، يعامل النّاس بظاهر الشّريعة؛ لذلك يصدّقهم، وهو رحمة لمن استنّ بسنّته، واهتدى بهديه.

3،3 الطّعن في الإسلام.

واصل المنافقون كيدهم بالدّعوة الإسلامية، إلى أن وصلوا إلى الطّعن في الدّين، ومحاولة ضرب أساسه، واقتلاعه من جذوره، فقد كانوا في بداية أمرهم يعتمدون أساليب خفيّة، ويحذرون أشدّ الحذر من اكتشاف أمرهم، ولكن بعد أن أحسّوا بأنّ شوكتهم قويت، ورست أقدامهم قليلا داخل المجتمع الإسلامي، تجرّؤوا على الاستهزاء بالدّين والطّعن فيه، ومحاربته، والتشكيك في نبوّة النبيّ ﷺ، حاولوا أن يضعفوا الإسلام، بإبعاد المسلمين وغيرهم عنه، باختراع الأكاذيب والأباطيل حوله، لكن الله جلّ وعلا بيّن مكرهم،

وسوء نياتهم، وأظهرها للمسلمين، وأنزل على نبيِّه ﷺ آيات تُنبي بشديد عقابهم، تقوية للمسلمين، وتضعيفا لهم.

1، 3، 3 **ضرب الإسلام، وإنكار القرآن.**

مواصلةً للحديث عن كيد المنافقين، نذكر أسلوبا آخر من أساليبهم الخبيثة، يتمثّل في محادّة الله ورسوله بشتّى الطّرق والوسائل، يبذلون جهدهم وطاقتهم لتضعيف الدّعوة الإسلامية، والقضاء عليها شيئا فشيئا إلى غاية إماتتها، عن طريق الاستهزاء بالإسلام وأهله، وإثارة الشّبهات حوله؛ لتنفير أهله وغيرهم عنه، وبيان ذلك على النّحو الآتي:

أوّلاً: محاربة الله ورسوله، والاستهزاء بالإسلام وأهله.

ويبرز ذلك جليًّا في **قوله تعال:** ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ**﴾**[التّوبة:63]**، فقد بيّن الله حال المنافقين من محاربتهم له ولرسوله ﷺ، في تجاوز الحدود التي حدّها الله تعالى والاستهزاء بها، قال سيّد قطب: ".. سؤال للتّأنيب والتّوبيخ ، فإنّهم ليدّعون الإيمان، ومن يؤمن يعلم أن حرب اللّه ورسوله كبرى الكبائر، وأنّ جهنّم في انتظار من يرتكبها من العباد، وأنّ الخزي هو الجزاء المقابل للتمرّد. فإذا كانوا قد آمنوا كما يدّعون، فكيف لا يعلمون؟ إنّهم يخشون عباد اللّه فيحلفون لهم ليُرضوهم ، ولينفوا ما بلغهم عنهم. فكيف لا يخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه. فكأنّما يحاربون اللّه، تعالى اللّه أن يقصده أحد بحرب! إنّما هو تفظيع ما يرتكبون من إثم ، وتجسيم ما يقارفون من خطيئة، وتخويف من يؤذون رسول اللّه، ويكيدون لدينه في الخفاء". (قطب، 2008، صفحة 1671، ج3) .

ثانيًا: تهوينهم من سور القرآن، وكفرهم بها، وتضايقهم من استماعها.

الآيات التي ذكرت هذا الأسلوب هي **قوله تعالى:** ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** ﴾**[التوبة:64]**، **وقوله تعالى:**﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ** ﴾**[التوبة:65]**، **وقوله تعالى:**﴿**وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ **[التوبة:124]**، **وقوله تعالى:** ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾**[التّوبة:125]**، **وقوله تعالى:** ﴿**وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** ﴾ **[التوبة:127].**

فالمعنى العامّ الذي تضمّنته هذه الآيات: هو بيان وكشف وفضح المنافقين بمحاولتهم القضاء على الإسلام، بتنفير أهله منه ومنع غيرهم من اعتناقه، فراحوا يستهزئون به وبأهله، ويصفونه بأبشع

الأوصاف؛ محاولين تقبيح صورته عند الجميع بشتّى الأساليب، رامين إضعاف الدّعوة الإسلاميّة، كما أنّهم يستهزئون بالقرآن الكريم، ولا يؤمنون بتواتره ، وينكرون أصلا بأنّه وحي من عند الله تعالى، نزّله على نبيّه محمّد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، يريدون تشويه القرآن الكريم، والتّهوين من سوره وآياته؛ لعلمهم بأنّه دستور المسلمين، ظانّين بأنّهم يستطيعون تنفير المسلمين منه.

2، 3، 3 الكفر، واتّباع سنن الأمم الكافرة.

من أخطر الأساليب التي انتهجها المنافقون هي الكفر بالدّين الإسلامي، وإنكار نبوّة النّبي ﷺ، ولم يقفوا عند هذا الحدّ فقط، بل تجاوزوه إلى السّعي لإفساد دين المسلمين عليهم، جحدوا بالإسلام، وأرادوا الرّدّة للمؤمنين، كما أنّهم أيضا سلكوا مسلك الأمم السّابقة في التّكذيب والعناد، كذّبوا الرّسول– صلى الله عليه وسلّم–، وكفروا برسالته، وتفصيل ذلك على النّحو الآتي:

أوّلاً: جحودهم وكفرهم، وإنكارهم نبوّة النّبيّ ﷺ.

الآيات التي تحدّثت عن هذا الأسلوب في سورة التّوبة **هي قوله تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:66]، وقوله تعالى:﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾[التّوبة:74]، وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:80]، وقوله تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:84]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التّوبة:129].**

وعليه فالمقصود العام لهذه الآيات فيما ذكره أهل التّفسير أنّها في وصف المنافقين وبيان طريقتهم الخسيسة في صدّ دعوة الإسلام من كفرٍ وجحودٍ بها، وإنكارٍ لدعوة النّبيّ ﷺ، ووصفها بأبشع الأوصاف، حيث أخبر الله –جلّ وعلا– بأنّه من كان هذا حاله لا وليَّ له ولا نصير في الدّنيا ومآله في الآخرة جهنّم وبئس المهاد.

ثانيًا: اتّباع سنن من قبلهم من الأمم الكافرة.

الآيات التي أشارت إلى هذا الأسلوب هي **قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التّوبة:69]، وقوله**

تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التّوبة:126].

ذكر الله تعالى في هاتين الآيتين حال المنافقين وديدنهم من اتباع سبيل الأمم الكافرة السّابقة من الاستمتاع والانبهار بزهرة الحياة الدّنيا، وخوضهم في الباطل وكذبهم وافترائهم وبهتانهم، وإخفائهم الكفر وإظهارهم الإيمان بالله، يؤمنون مرّة ثمّ ينافقون ثمّ يؤمنون ثمّ ينافقون، كما ينقضون عهدهم في السّنة مرّة أو مرّتين، ثمّ لا يتوبون من نقضهم، يشيِّعون الأكاذيب على النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- ، يُمتحنون بشتّى الابتلاءات، من المرض والجوع، ومن إظهار الفضيحة على نفاقهم وعلى تخلّفهم عن الغزو، وخيانتهم، لكنّهم لا يتّعظون ولا يتذكّرون بما يعايِنون من آيات الله، لهذا كانت عاقبتهم الخسران المبين في الدّنيا والآخرة.

وعليه يمكن اعتبار هذا الأسلوب أخطر الأساليب التي اعتمدها المنافقون في المكر بالدّعوة الإسلامية، إذ لا يوجد أخطر من تكذيب النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم، وردّ دعوته والطّعن فيها، ومخالفة ما جاء فيها، وضربها في صميها، وإبعاد النّاس عنها بوصفها بالإرهاب، وغيرها من الأوصاف الشّنيعة التي لا تليق بها، فقد كفروا بالله وأنكروا نبوّة نبيّه ﷺ، وفسقوا عن الدّين، وسلكوا مسلك الأمم الكافرة في الجحود والكفر.

4. خاتمة.

بعد هذا البحث الذي تناولت فيه أساليب المنافقين القولية في الكيد للدّعوة الإسلامية في سورة التوبة، خلصت إلى مجموعة من النتائج أوردها في النقاط الآتية:

1- المنافقون أكبر خطر يهدد الدّعوة الإسلامية في عهد النّبي صلّى الله عليه وسلم وفي العصور من بعده إلى وقتنا الحالي؛ لخفاء حالهم، وتستّرهم بأقنعة المحبّة والخير لممارسة الخديعة والمكر.

2- شدّة كره المنافقين للإسلام والمسلمين، جعلتهم لا يملّون من كيدهم للدّعوة الإسلامية، فهم يحيكون كلّ يوم حيلة جديدة يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

3- جعل المنافقون حلِفهم بالله القناع السّاتر لفضائحهم، والمركب الآمن لمواصلة أعمالهم الخبيثة، والعيش بأمان داخل المجتمع الإسلامي والتنعّم بالغنائم والثّروات.

4- مهارة المنافقين ودربتهم على النّفاق جعلت أمرهم يخفى على المؤمنين، من أجل ذلك نزلت هذه السّورة لبيان صفاتهم حتّى يحذر منهم المؤمنون في كلّ وقت.

5. قائمة المصادر و المراجع

1. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدّين الرّازي. (1420هـ). التّفسير الكبير (مفاتيح الغيب). بيروت: دار إحياء التّراث العربي.
2. إبراهيم، سيد قطب. (2008). في ظلال القرآن. القاهرة: دار الشّروق.
3. ابن الأثير مجد الدّين أبو السّعادات. (1979م). النهاية في غريب الحديث والأثر. بيروت: المكتبة العلمية.
4. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر. (1984). تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. تونس: الدّار التّونسية للنشر.
5. ابن منظور محمد بن مكرم. (2004). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
6. أبو الفيض الزبيدي محمد بن محمد بن عبد الرزاق. (بلا تاريخ). تاج العروس من جواهر القاموس. الكويت: دار الهداية.
7. أبو بكر جابر الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر. (2003). أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم.
8. أبو محمّد عبد الحقّ بن غالب بن عطيّة. (2001). المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. بيروت: دار الكتب العلمية.
9. آل نصر محمّد بن موسى. (2000م). المنافقون في الكتاب والسّنّة وآثار السّلف الصّالح. عمان: دار الحامد.
10. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. (1997م). معالم التنزيل في تفسير القرآن. المملكة العربية السّعودية: دار طيبة.
11. الجرجاني عبد القاهر. (1404هـ). دلائل الإعجاز. القاهرة: مكتبة الخانجي ومطبعة المدني.
12. الجرجاني، علي بن شريف. (1983م). التعريفات. مصر: دار الكتب العلمية.
13. الزحيلي، وهبة بن مصطفى. (1422هـ). التفسير الوسيط. دمشق: دار الفكر.
14. جلال الدّين السّيوطي عبد الرحمان بن أبي بكر. (2004). معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم. القاهرة: مكتبة الآداب.
15. رؤوف شلبي. (1974م). الدعوة الاسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها. دمشق: دار القلم.
16. محمد *أبو زهرة* . *زهرة التفاسير*. (بلا تاريخ). بيروت: دار الفكرالعربي.
17. علي محفوظ. (1979). هداية المرشدين إلى طرق الوعي والخطابة. القاهرة: دار الاعتصام.
18. مجمع اللّغة العربية. (بلا تاريخ). المعجم الوسيط. القاهرة: دار الدعوة.
19. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري. (2000م). جامع البيان في تأويل القرآن. بيروت: مؤسسة الرّسالة.
20. محمّد رشيد رضا. (1990م). تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.